ذكرنا سابقاً كيف نشأة القرى وهي مقومات الحياة القروية في العصر الحجري الحديث، إذ دجن الإنسان النبات والحيوان وبنى بيوت واخترع الالات والادوات الخاصة بالزراعة والحصاد والطحن والتخزين، وعندما ننتقل إلى بداية تكوين المدينة يتبين ان التمدن حصل في جنوب بلاد الرافدين لا في شماله، وهذه الظاهرة تثير الاستغراب فالذي يتتبع التطورات الحضارية يجد ان اقدم استيطان بشري كان في المنطقة الشمالية وفيها تأسست اولى القرى الزراعية، وإلى الان لا نعرف هذا الانقلاب الحضري الذي حصل آنذاك، ولقد وجدت طلائع المدن الرافدينية الاولى في الطبقات الثلاث السفلى من تل الصوان حتى وصلت الى الجزء الجنوبي منه لقد كانت اور والوركاء واريدو اقدم المستوطنات التي قامت في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين التي انبثقت منها فيم بعد انظمة حضارية اقتصادية واجتماعية وسياسية كانت الاولى من نوعها في العالم مثل انظمة الري والزراعة الواسعة ومجلس الشورى للمدينة الذي يساعد حكام المدن، ويمكن القول ان اولى المدن في العالم هي التي ذكرناها.

ان تطور في نمط الاستيطان لم يكن عملية عشوائية وان التحول في الاستيطان يكشف عن حركة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيئية الكامنة.

هناك عدة عوامل ساعدت على قيام المدن:

١- العوامل الطبيعية : عند نشوء أواختيار موقع المدينة لابد من توفر المياه بدرجة الاولى بوصفها مصدراً اساسياً في الحياة واهميته في النقل وتوفير طرق المواصلات فضلاً عن أن المياه تشكل حدوداً طبيعية فاصلة بين المدن ومن العوامل الطبيعية الاخرى هو اتجاه الرياح السائدة حيث أن أغلب مدن بلاد الرفدين جاءت محاور المدينة بأتجاه الرياح السائدة.

٢- العوامل السياسية : وتأتي من حيث استراتيجية الموقع وامكانية توفير الحماية الطبيعية و الاخذ بالحسبان التحصين الطبيعي للمدينة.

٣- العوامل والقيم الروحية :فقد اعتقد سكان بلاد الرافدين بقدسية المواقع فعمدوا الى تشييد المدينة على الموقع نفسه والطبقات الاخرى التابعة حسب التسلسل الاثري.

٤-التقدم التقني: فقد حفز التعدين وصناعة المعادن واختراع المحراث وصناعة الالات والذي انعكس ايجابياً على زيادة الانتاج وتقسيم العمل، وبواسطة التقدم التقني اصبح بالامكان جمع الفائض وخزنه وتوزيعه وكذلك ادى الى جمع الناس حول موقع معين فأدى الى نشوء المدن، حيث ارتبط ظهور المدن بتقدم العلوم والقدرات الفنية ومن اهم هذه القدرات هو استعمال عنصر المعادن والاشتغال بالنشاط غير الزراعي ، وهكذا ظهرت التجارة والصناعة في بعض القرى فتحوت الى مدن، وقد كات التخصص في الصناعة في العصور القديمة وظيفة انفردت بها المدن، وتشكل مسألة نشأة المراكز الحضرة من الناحية التاريخية بمعرفة متى تحولت القرية الى المدينة فبعض الباحثين يربط هذا التغير ونشأة الحضارة ، ان التخصص في العمل بين سكان المدينة غير الزراعيين قاصراً على ظهور الكهنة والقادة والرجال الحرفيين، غير انه مع الاختراعات والاكتشافات في العصر البرونز والحصول على الاخشاب والنحاس والاحجار بوساطة التجارة ساعد على زيادة هذا التخصص، ومن ثم اتسمت حضارة المدن منذُ بدايتها بوجود التجارة التي ساعدت في احضار بعض المواد اللازمة للمدن القديمة خلال دراسة المظاهر الرئيسية لمعظم المدن القديمة في بلاد الرافدين.

يمكن اقتراح بعض المقاييس المعتمدة على الادلة الآثرية للمراكز القديمة وهي:

١-ان هذه المراكز كانت اكبر حجماً واكثر اتساعاً وشد كثافة من المستوطنات التي سبقتها أي القرى.

٢-ان اغلب سكان المدن القديمة لم ينفصلوا عن الارض بل كانوا زراعاً الى جانب طبقات كبيرة من التخصص.

٣-امتازت مراكز الحضر القديمة بوجود فائض من السلع كان يجمع من المنتجين ليكون رأسمال فعال للمدينة.

أي ان كل مركز حضري لجأ للتعبير عن ذاته رمزياً ببناء مبنى عام أو نصب تذكارية فقد كان للمدن السومرية قلاع كبيرة أو زقورات مصحوبة بالمعابد ومخازن الحبوب.

٤-اما التجارة التي ميزت كل الحضارات والحضر والتي كان من نتائجها ان اصبح الصناع جزءاً حيوياً من المجتمع الجديد اذا انتقل الى جانبهم في المدينة الحرفيون الاخرون المرتبطون بهم

هناك عدة مراحل لنشوء المدن:-

١-مرحلة الظهور على شكل مستوطنة ومن ثم تتوسع نتيجة زيادة استعمالات الارض للأغراض غير الزراعية (الدينية او الصناعية او التجارية) فضلاً عن اقامة وحدة معمارية تؤدي دور النواة المركزية للمدينة ويرى الباحثون ان المدينة تبدأ على شكل بلدة او مستوطنة ثم تدخل في المرحلة الثانية

٢-مرحلة النمو الذي يكون في اغلب الاحيان عن طريق نمو السكان بدافع الهجرة فضلاً عن النمو الطبيعي فيها.

المفهوم اللغوي للمدينة

لقد اطلق المصلطلح السومري(uru-اورو)، وفي الاكدي(الو-alu) على المستوطن البشري الدائم الذي يتألف من بيوت مشيدة (سواء من اللبن او على شكل اكواخ)، في اللغة يرجع اصل كلمة مدينة إلى مدن أي المكان الذي اقام به الإنسان، والمدينة هي الرقعة من الأرض التي يجتمع فيها الناس ويقيمون فيها، ولها حدود ثابتة.

وتتألفت المدينة بصورة عامة من مركز المدينة الذي يشمل المعبد والقصر ومقرات الموظفين التابعين للبلاد وبيوت الموظفين، أما الضاحية التي تكون خارج سور المدينة وفيها بيوت المزارعين والميناء، بالاضافة إلى المخازن وخانات المسافرين والتجار.

اختلاف الانظمة الادارية والسياسية بين القرية والمدينة:

يفتقر مجتمع المدينة الى بعض الوسائل البسيطة التي تسهل حياته ،حيث أنها تستقطب اغلب الامكانات التي تكون مجتمع متمدن واقتصادي متمثل بالصناعة والتجارة والنقل وحركة العمران الاكثر تعقيدا التي تحتاجها المدن الواسعة ، هذا يبرهن ظهور طبقات وتخصصات بالتالي حاجتها الى نظم سياسية وادراية لقيادة مؤسساتها ، والفرق واضح بين القرية من حيث اختلاف النظام الاداري ووجود القيادات والمراكز المتعددة فيها على عكس القرى ذات النظام المركزي الاداري والبيئي والمهني الموحد.،

تأثر السومريون بطبيعة الارض وحوض دجلة والفرات فقد عرفوا تربية المواشي والزراعة والمعادن، اي المنجزات ذات الصلة بالانتاج ، تعين عليهم خوض الصراع مع قوى الطبيعية الجبارة، وقهر السومريين الطبيعة ببنائهم المنظومة الاروائية ، فصلوا اليابسة عن المياه ان هذه المراحل التطورية ادت الى ملامح خاصة، فضلا عن ان الوحدة الا انفصالية للمدينة او القرية نمت الملكية ليس هناك ملكية فرد مستقل وانما وجدت حيازته وبالتالي فأن الملكية بمثابة ملكية عامة للارض.

نتائج بعض التنقيبات :

ظهرت نتائج التنقيبات التي اجريت في العديد من المواقع والمستوطنات الاثرية في بلاد الرافدين ان المدينة وحياتها كانت مظهرا اصيلا من مظاهر الحضارة العراقية القديمة وليست حالة طارئة عليها اقتبستها من الامم المجاورة لها، كما بينت التنقيبات ايضا طريق الموانئ الموجودة على الانهار تصل اغلب المواد التي تحتاجها المدينة فمثلا مدينة اكد واور الواقعتين على شواطئ الانهار كانت سفن دلمون (البحرين) ومليوخا ومكان(عمان) ترسو عند شواطئها محملة بالبضائع ، استنادا الى نصوص العصر الاكدي وسلالة اور الثالثة، ولم يكتفي العراقيون القدماء بالانهار الرئيسية ، اذ عملو على شق قنوات من الانهر الرئيسية الى داخل المدينة من اجل تسهيل عملية الزراعة والحصول على المياه فهناك خريطة تعود الى مدينة سبار توضح احدى القنوات التي تمتد داخلها، فضلا عن ان بعض هذه القنوات كانت تحيط بالقصور الملكية من اجل زيادة تحصينها وحماية الملك وعائلته اما جهات المدينة الاخرى التي لاتحتوي على حدود طبيعية منيعة فقد تم بناء الاسوار فيها.

امتازت مدن بلاد الرافدين كما اخبرتنا النصوص المسمارية فضلا عن ماسفرت عنه التنقيبات الاثرية بان من اهم مميزات مدن بلاد الرافدين هو وجود المعابد فيها وكانت هذه المعابد على درجات ومراتب هي الاخرى ،فإلى جانب المعابد المخصصة لعبادة الالهة الرئيسة في المدن كانت هناك معابد ومزارات ثانوية، وقد تباينت انماط المدن واحجامها واهميتها فقد تكون مراكزا دينية او ادارية او رسمية ، اما اسماء المدن فقد اشتقت اغلبها من اسم الاله الرئيسي للمدينة او من وظيفة المدينة بالدرجة الاساس فمدينة حران الذي يعني اسمها في الاكدية (الطريق) مما يعني انها لعبت دورا بارزا

على طريق تجارة المرور وكانت محل التقاء كبير ومحطة مهمة على مر العصور للقوافل والحملات المارة في شبكة الطرق الشمالية من بلاد بابل في بلاد الرافدين من جهة ،ومن مصر والجزيرة العربية وفلسطين من جهة اخرى.

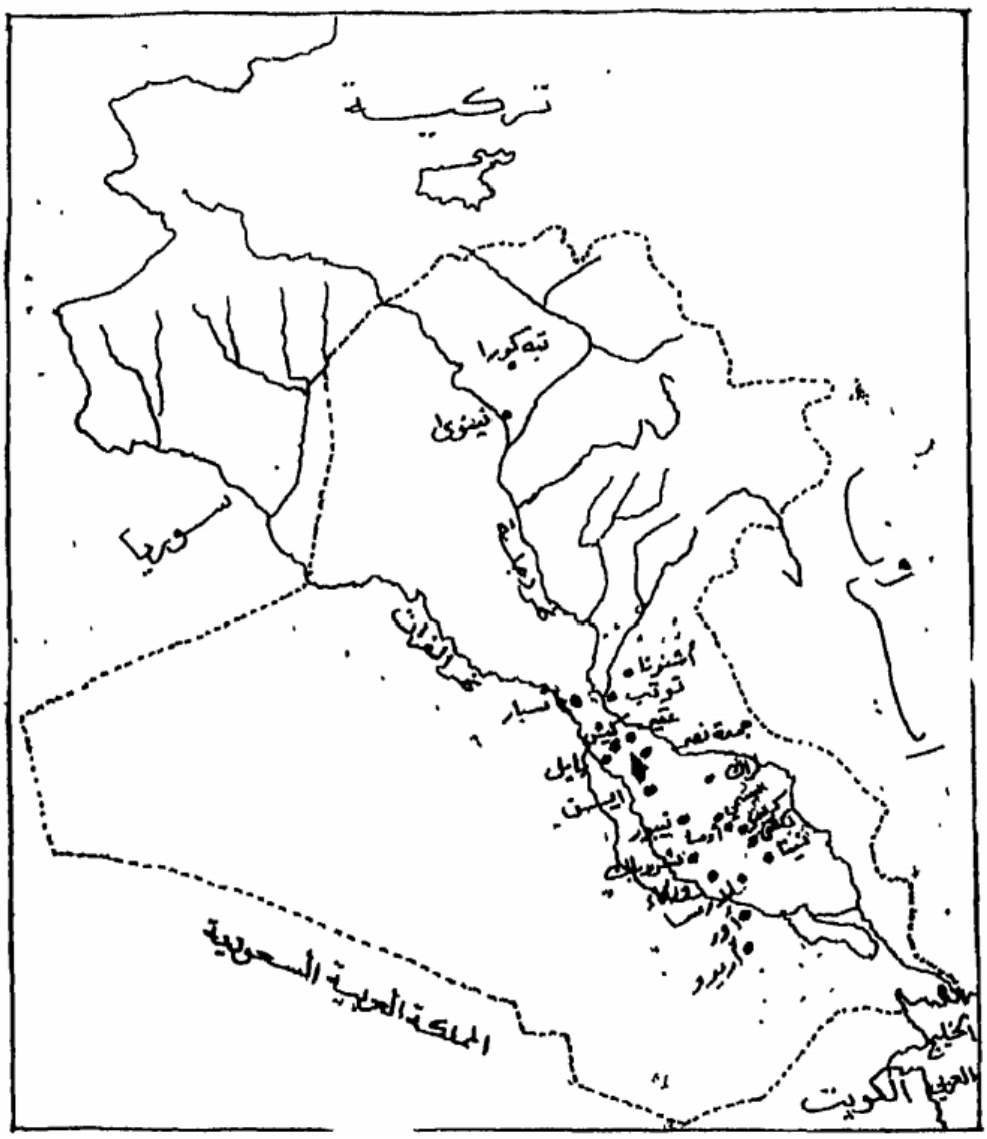

مدن عصر فجر التاريخ والعصور التأريخية المبكرة
في العراق